التحذير من رفقة السوء

إن المرء على دين خليله ،والمرء يعرف من صديقه ، لأن الأشباه تجتمع وتتقارب ، والطيور على أمثالها تقع ،ولا أنفع للإنسان ولا أضر عليه من البيئة والصحبة ،ولذلك أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي)

وأخرج مسلم في صحيحه ،قصة رجل من الأمم السابقة قتل تسعة وتسعين نفساً ثم سأل عن أعلم أهل الأرض – بغية التوبة – فدلوه على عابد ،فأتاه وأخبره أنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال له :ليست لك توبة فقتله فأكمل به المائة – لكن الشعور بالذنب والندم على فعله والخوف من الله والإنابة إليه والحنين إلى التوبة كل ذلك تحرك في قلبه وجاشت في صدره العودة والرجوع إلى الله خوفاً من عذابه وطمعاً في جنته – فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه على عالم ، فأتاه وأخبره أنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ،فقال له :نعم ومن يحول بينك وبين التوبة ؟! ولكنك في أرض سوء يُعبد فيها غير الله ،فاذهب إلى أرض كذا وكذا فإن فيها قوم يعبدون الله فاعبد الله معهم ،فحمل متاعه وخرج من قريته وبينما هو في منتصف الطريق أتاه ملك الموت فقبض روحه ،فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. قالت ملائكة الرحمة : إنه رجع إلى الله تائباً ،وقالت ملائكة العذاب :إنه لم يعمل حسنة قط ،فأرسل الله إليهم ملكاً ليُحَكِّموه بينهم ، فقال لهم : قيسوا ما بين القريتين فإلى أيتهما كان أقرب فخذوه إليها ، فأوحى الله عز وجل إلى الأرض الطيبة أن تقاربي ،وإلى الأرض الخبيثة أن تباعدي ،فلما قاسوا ما بين القريتين وجدوه إلى الأرض الطيبة أقرب فأخذته ملائكة الرحمة إلى الجنة .

إنها قصة عظيمة النفع ،أرشد فيها هذا العالمُ الرجلَ التائب إلى عدة أمور من أهمها :

١-تغيير البيئة بالانتقال من أرض السوء إلى الأرض الطيبة .

٢-تغيير الصحبة السيئة إلى صحبة طيبة تعين على طاعة الله .

فالإيمان يزيد في البيئة النقية ،وفي جوار الصالحين والمتقين ،ولذلك كان من دعاء سليمان عليه السلام (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) وكل فساد وبلاء وانحراف إنما ينشأ من أعوان الشيطان وجنوده من الأنس الذين يفتحون على العبد أبواب الغفلات والشهوات ولا يعينوا على الطيبات والصالحات ، وكم من عبد قد احتوشته قرناء السوء وأصحاب الشهوات ،فزينوا له الباطل وأعموا بصره وبصيرته عن رؤية الحق ومشاهدة مواطن الخير والفضل ،وثبطوا همته عن التشمير عن ساعد الجد ومواصلة السير في طريق الجنة وسبل الخير ،ولقد نهانا ربنا عن مصاحبة الأشرار،وبين أنهم يوم القيامة سيتبرأ بعضهم من بعض وسيلعن بعضهم بعضاً،وسيتهم كل منهم الآخر أنه كان وراء ضلاله وإفساده (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الأنس والجن في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) ، أما المؤمنون الصادقون فقد نزع الله من صدورهم الغل وجعلهم إخواناً على سرر متقابلين في جنات النعيم (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) ، ولقد أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى من تجب مصاحبته وملازمته ،وذكر سمات الجليس الصالح والجليس السوء فقال (مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن تبتاع منه وإما أن يحذيك وإما أن تشم منه رائحة طيبة ،ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة) "متفق عليه "، فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ،والشيطان يفترس العبد إذا كان وحده وهو عليه أشد بصحبة السوء وأعوان الشر ،ومن ثمَّ فعلى العاقل أن يُقَنِّدَ أقرب الناس إليه والملتصقين به ،فإنه يُعرف بهم ،ومن أحب قوماً حُشر معهم ،ومن تشبيه بقوم فهو منهم ،ومن أدخل نفسه مدخلاً يتهمه الناس فيه فلا يلومن إلا نفسه ،فقد سبق بذلك الإنذار والوعيد والأمر والنهي ،إن صحبة السوء عدوٌ مبين ،وبطانةٌ خبيثة ،وجنود حاضرة للشيطان أينما يوجهها تسير وتعمل ،ولذلك فلا خير إلا في صحبة المؤمن ،والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأعراضهم ،والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ...

أشد التحذير من مصاحبة الكبير للصغير

إن من المظاهر السيئة التي نشهدها في مجتمعاتنا هذه الأيام ظاهرة كثير من الناس عنها ساهين ، وعن خطرها غافلين ألا وهي ظاهرة مصاحبة الكبير الذي نطح سنه أواسط العشرين وزاد للصغار من الغلمان والأولاد ، وقد يقول قائل : وماذا في ذلك ! ؟ رفيق ورفيقه ، وخليلٌ وصديقه ، لكن المسألة تتعدى ذلك بكثير ، ولا ينتبه لها أحد والأمر خطير ، والمظاهر خادعة ، والصور المكشوفة لا تنم بالضرورة عن الأحوال الباطنية المستورة ، فنحن يغرنا منظر بعض الورود الجميل ولونها الزاهي عند تساقط أشعة الشمس عليه فيكون له البريق واللمعان وعندما نشمها نجد أنها بلا ريح وسريعة التفتت ، والذبول ، ولونها سريع الزوال ، ويخدعنا السراب عندما نظنه ماء فنهرع لظمئنا الحارق إلى شربه فنجده هباء فلا يزيد عطشنا إلا عطشا ولا عناءنا إلا عناء ، وفي القران الكريم كشف الله المنافقين رغم كلامهم ومظهرهم الدال على الإيمان والثبات فقال سبحانه (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) قال بن كثير رحمه الله في تفسيره ((كاذبون) :أي فيما أخبروا به وإن كان مطابقاً للخارج) – انتهىكلامه رحمه الله – ، والعلاقات التي تنشأ بين الكبار وبين من يصغرونهم بسنوات عديدة الكثير منها يكون ظاهره خالص الصحبة والمودة ، وباطنها أمور تأبى الأنفس المؤمنة عن تصديقها ، وتروع القلوب الطاهرة لدى سماعها ، فبعض الكبار (هداهم الله وأصلحهم) اتخذوا من الصغار باسم الصحبة والصداقة ! مطيةً للوصول بهم إلى غاياتهم السيئة أو شهواتهم الدنيئة ، فصارت العلاقة بينهم كعلاقة الزعماء بعصاباتهم ، والأخلاء بخليلاتهم ،وهذا سبب من أسباب كثرت السرقات ، واللواط ،وإدمان المخدرات ، وعمل المنكرات ، ولا تكاد السجون اليوم تخلو من المراهقين ، ولا يكاد يرتكب الجرائم إلا من هم تحت سن العشرين ، وما ذاك إلا لصحبتهم للكبار الفاسدين فتعلموا منهم المعاصي والفساد، واجتهد أولئك عليهم في المعاصي أيما اجتهاد ،فالصاحب كما يقال ساحب ، والمرء كما ورد : (على دين خليله) ، ومن عاشر قوماً كان منهم وعلى صفتهم وشاكلتهم ،وأولئك الكبار الذين انحرفوا عن جادة الهدى والصواب ، ورافقوا من هم أصغر منهم سنا كان لهم عليهم فضل عقلٍ وجسمٍ، وقوة وربما امتلكوا وسائل أخرى كالمال والسيارة ، فاستغلوا ذلك في إغوائهم ، وترويضهم وتطويعهم لهم ، فصار الصغار في أيديهم كالحديد المصهور يشكلونه كيف يشاءون ، أو كالوعاء الفارغ يملئونه بما يريدون ، وإنا لنشاهد في واقعنا المعاصر الكثير من الفتن ، منها ما ظهر وطفح على السطح ، ومنها ما بطن ، فمن ذلك أن بعض أولئك الذين صاحبوا الصغار وغووهم من احتدت فيه شهوته ، وثارت عليه غريزته ، فلما لم يقدر أو يهتدي إلى الحلال ، وانحرفت به نفسه عن شرع ذي الجلال اتخذ من هؤلاء الصغار منفذاً لشهوته ، وعشقاً لملذته ، فرافق الغلمان ، وهوت نفسه المردان ، فسقط في الهلاك والخذلان ، وهذا والعياذ بالله منتهى الخسران قال الإمام بن القيم (رحمه الله) في جوابه الكافي واصفا حال مثل هذا (وهذا داءٌ أعيا الأطباء دواءه ، وعزّ عليهم شفاؤه ، وهو لعمر الله الداء العضال ، والسمُّ القتّال) – نسأل الله السلامة – وكذلك من هؤلاء الكبار من هجره أصحابه لخسته ، وفساد خلقه وقلة حيائه وأدبه ، فلما استو حد وانفرد ، وما وجد حوله من الصالحين أحد اتخذ الصغار أصحابه ، وأفاض عليهم من صفاته وأخلاقه ، فاجتمعوا حوله ، وارتبطوا به ، وعملوا بعمله ،فصاروا كالأورام الخبيثة في أجسام مجتمعاتنا يفعلون الفساد ، ويقومون بالإفساد حتى تضرر من شرهم الخلق والبلاد ، هذا ولمرافقة الصغار للكبار أسباب ومسببات ، فمنهم من حرم من رعاية الأبوين واهتمامهم ليتمه وأهمله الناس ولم يراعوه ولم يحسن أقربائه كفالته ورعايته فصار إلى ذلك ومشى عليه ، ومنهم من حرم من رعاية الأب وحنانه فأخذ يستجدي تلك الرعاية وذلك الحنان حتى وجده عند من زوره له وادعى به من الكبار ليربطه معه ، ويجره معه إلى طريق الفساد ، ومنهم من نشأ على غير خلق ودين فسهل صيده على المستذئبين ، ومنهم من خلقه الله على صورة جميلة ، فكان محطةً لأنظار ذوي الفحش والرذيلة ،فجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم حتى اكتنفوه في فحشهم ، وقتلوا نفسه بفعلهم (ولا حول ولا قوة إلا بالله) ، ثم إن من الكبار من أنعم الله عليهم بالدين ، وجعلهم من المؤمنين الصالحين ، وجعل منهم الدعاة والمربين ، فهؤلاء لا نقصدهم بكلامنا ، ولا نعنيهم بملامنا وتحذيرنا فهم بشرع الله ملتزمين ، وللحق عارفين ، وبالضوابط والحدود ملتزمين وإنما الكلام عن من غفل عن الله ، واتبع شهوته وهواه .

ملاحظة : مأخوذة بتصرف عن دار الوطن